اللغة العربيّة وابناؤها

لحضرة الاديب جرجس افندي زنانيري

من خطبة بالاترنسية تلاها في جمعية الانتيوم بالاسكندرية

تروني انتصبت في هذه الليلة بينكم خطيباً مع علمي بقصر الباع وسقط المتاع متخذًا اللغة العربيّة موضوع خطابي هذا غير متوخٍ البحث في هذه اللغة من وجهٍ علمي لان جهابذة علماء الغرب قد تكلموا في هذا الموضوع فاسهبوا ومن طالع كتاباتهم علم جليًا ما اللغة العربيّة الشريفة من المقام الرفيع بين لغات اهل الارض

اما ما قصدت تبيانه في خطابي هذا فانما هو فتور ابناء العرب وتقاعدهم زمنًا طويلاً عن الاهتمام بهذه اللغة ثم نهضتهم من زمن ليس ببعيد وزيادة رغبتهم في تعلمها واستخراج كنوزها وبرهاننا على ذلك ما نراهُ اليوم في البعض من شبابنا المصريين من الاقبال على درس هذه اللغة ومع ذلك فلا يسعنا الاّ ان نأسف لما نراهُ من توانى البعض الآخر ولاسيما ونحن في عصر تقدمت فيهِ العلوم تقدمًا عجيبًا فكان يجب ان اللغة تتبع تيار التقدم العمومي . وليس بيننا الآن الاّ فئة قليلة تدرّعت بالجد والاجتهاد والانصباب على الدرس والمطالعة ورجال هذه الفئة اكثرهم والحمد لله من شبابنا المصريين هم الموكول اليهم التعمق في درس هذه اللغة وتثقيف العقول بما حوتهُ من المبتكرات الادبيّة والاقوال الحكميّة وبث روح الرغبة في قلوب الّذين اقعدهم الخمول عن الاستضاءة بأنوار العلم الساطعة فان هذه اللغة وان تقادم عهدها لم تزل فريدة بين لغات المشرق تجر عليها مطارف الفخر والدلال بعذوبة ألفاظها وفصاحة الناطقين بها

واننا اذا افتكرنا ان اكثر من مئة مليون من البشر يتكلمون بهذه اللغة وان الكوفة والبصرة وبغداد وطرابلس الغرب والجزائر وفاس والاندلس وسوريّة كانت في الزمن السابق مهد العلوم وقد بلغت فيها اللغة العربيّة مقامًا عظيمًا مدة خمسة قرون متوالية وان مدارس الغرب الكبرى استنارت بعلوم العرب وكتبها اذا تأملنا كل ذلك ورأينا حالة لغتنا في تلك الايام وقسناها بحالتها الحاضرة وقابلنا بين نشاط العرب المتقدمين واهمال المتأخرين تأخذنا الدهشة ويعترينا الوجوم

ان تاريخ العرب من التواريخ العجيبة وتاريخ لغتهم لا نظير لهُ في تواريخ الامم القديمة

فانهُ قبل ان توضع كتب اللغة وتضبط أصولها بالضوابط — قبل ان يعرف العرب مبادئ العروض كانوا يتكلمون اللغة الفصحى وينشدون الاشعار التي لا يقدر ابناؤهم الآن ان يأتوا بمثلها وقد بلغت اللغة العربيّة منتهى الكمال واوج التقدم في زمن الامام عليّ ابن ابي طالب (رضه) الذي توفي سنة ٦٦١ للمسيح . ومن سنة ٧٥٠ الى سنة ١٢٥٨ بلغ الشعر شأوًا عظيمًا لاسيما في زمن خلافة الرشيد فان هذا الخليفة كان يجل العلماء ويعظمهم ويحسن صلتهم ويقربهم منهُ وكان عصر هذا الخليفة من قبيل انتشار العلوم نظير عصر لويس الرابع عشر ملك فرنسا

وقد زهت اللغة العربيّة ونبغ فيها علماء مجيدون في عهد الدولة الامويّة الاندلسيّة من خلافة عبد الرحمن حتّى انقراض هذه الدولة في القرن العاشر للمسيح ولهذا السبب نرى في لغة الاسبانيين كلمات كثيرة مأخوذة من اللغة العربيّة ولا يزال الاسبانيون يشبهون العرب في بعض عوائدهم واخلاقهم

واشتهر العرب بالذكاء وحدة التصوُّر وقوة الحاضرة فكان الواحد منهم يرتجل المئات من ابيات الشعر وكلها بديعة التركيب متناسقة المبنى لطيفة المعنى حتّى يخيل لسامعها ان مرتجلها قضى الساعات الطويلة في تنميقها وتنسيقها فجاءت آيةً في البلاغة

وكانوا يعيّرون من جاوز الخمسة عشر عامًا ولم ينطق بالشعر ولا يقبلونهُ في اجتماعاتهم وينسبون اليهِ الكسل والخمول وكانوا يجتمعون كل سنة في سوق عكاظ فيتناشدون الاشعار الحماسيّة والغزليّة وغيرها وكثيرًا ما ضمنوا قصائدهم وصف غزواتهم والحروب التي اثاروها والاسلاب التي اغتنموها الى غير ذلك من الحوادث التاريخيّة التي اعتمد عليها كثير من الكتاب والمؤرخين لتدوين اخبارهم التي لم ينبئنا بها التاريخ

ومن هذه القصائد ما يسمونهُ المعلقات وهي سبع قصائد من اجود الشعر العربي وافصحهِ جادت بها قرائح سبعة من ابطالهم وقد كتبت بحروف ذهبيّة وعلقت في الكعبة وهي تتضمن ذكر وقائعهم الشهيرة

وكان العرب ينشدون الشعر عفوًا على غير استعداد وفضلاً عن ذلك فقد تحلوا بالصفات التي يفتخر بها متمدنو هذا العصر فمنهم من اشتهر بالحذق والذكاء ومنهم من اشتهر بالمروءة والوفاء ومنهم من اشتهر بالحلم والسخاء نظير اياس والسموأل ومعن ابن زائدة وحاتم الطائي وغيرهم كثيرون وكلنا يعلم قصة الامير معن ابن زائدة مع الاعرابي وكيف انهُ اعطاهُ على هجوهِ اياهُ الف درهم وعلى مدحهِ اربعة آلاف درهم!

وكان نساء العرب يجارين الرجال في العلم والادب وقد نبغ منهنّ شواعرُ عديدات لا حاجة الى ذكرهنّ بل اكتفي بسرد النادرة الآتية ليعلم ابناء عصرنا الناشئ الذي بلغ البه النساء العربيات من الحذق والذكاء

خرج هرون الرشيد يومًا ما لينتزه على شاطىء دجلة فرأى فتاة تنشد هذه الابيات بصوت رخيم

قولي لطيفكِ يثني ... عن ناظري وقت الوسن
كي استريح وتنطفي ... نارٌ تأجّج في البدن
دفء تقبله الاكفُّ ... على بساط من شجن
اما انا فكما علمت ... فهل لوصلك من زمن

فدنا منها وقال أَلَكِ هذه الشعر يا جارية ام مسروق فقالت لي ياخير العرب فقال لها ان كان لكِ احتظي المعنى وغيري القافية فاعادت انشاد الابيات وقد غيرت قوافيها ولم يزل يستزيدها الى ان كررت تغيير القوافي خمس دفعات متوالية فأعجب بها الرشيد وامر لها بصلة سنيّة

اما تغيير القوافي مع التزام المعنى فامرٌ شائع عند العرب وذلك مما يدل دلالة واضحة على اتساع هذه اللغة وكثرة الكلمات التي وضعت فيها لدلالة على معنًى واضح وقد اقرّ لها علماء المغرب بهذه المزيّة اذ يندر فيها وجود كلمة لا مرادف لها ومن الكلمات ما له كثيرٌ من المرادفات حتّى بلغ مرادفات بعضها الثلاثمائة عدًا وفضلاً عن ذلك فان للكلمة الواحدة معانٍ كثيرة فانني اذكر قصيدة مؤلفة من ثلاثة وعشرين بيتًا وكل بيت منها ينتهي بلفظة الخال ولكل لفظة معنًى وهذه القصيدة من مبتكرات الشاعر الطائر الصيت المعلم بطرس كرامه

واذا التفتنا الى حالة العرب في ايامنا هذه وقابلناها بحالتهم في الايام الغابرة عند ما كانت بلادهم تزهو بالعلماء ويقصدهم علماء الغرب لاغتراف العلم والعرفان من بحار علومهم الزاخرة لا نابث الاّ وتستولي علينا الاكدار اذ نراهم اشبه بالغني البخيل العائش بالتقتير وقد ضاقت خزائنه دون وسع كنوزه

قلتُ ان اللغة العربيّة واسعة جدًا واستنادًا لذلك اقول . ان حروف اللغة العربيّة تنقسم الى حروف مهملة وحروف معجمة وفيها كلمات كثيرة مؤلفة من الحروف المهملة فقط او المعجمة فقط وفيها القصائد العديدة المؤلفة من الحروف المهملة او المعجمة او المؤلفة

صدورها من الحروف المعجمة واعجازها من الحروف المهملة او المؤلفة كلها من حروف مهملة ومعجمة على التوالي او المؤلفة من حروف مهملة صورة ومجاء كالدال . ومن الغريب انهُ استصبَّ لبعضهم ان ينظم اشعارًا من كلمات مؤلفة من هذه الاحرف القابلة

ومن الابيات ما لو ابدلت كلمة واحدة منهُ لانقلب معناهُ من مدح الى ذم و بالعكس كقول الشاعر الشهير الشيخ ناصيف اليازجي

من رامَ ان يلقى تباريح الكرب من نفسهِ فليأتِ اجلاف العرب

فهذا البيت يقصد بهِ الذم ولكن اذا ابدلنا الف يلقى باء ولفظة اجلاف بأشراف انقلب الذم مدحًا . ومن الابيات ما يقرأ بلفظ واحد طردًا وعكسًا . ولو شئتُ ان اذكر ما تشتمل عليهِ اللغة العربيّة من المحسنات والالغاز والاحاجي وضروب البلاغة لكبا جواد فكري فعذري لديكم قصوري في هذا الباب

ثم ان كل حرف من حروف اللغة العربيّة يدل على عدد من الاعداد فالالف مثلاً تدل على العدد واحد والباء على العدد اثنين والجيم على العدد ثلاثة وهلمَّ جرًّا وهذا ما يعمونهُ بحساب الجمل و بعض الشعراء يضمنون آخر بيت من قصائدهم في المدح والرثاء تاريخًا للسنة يؤخذ من مجموع الاعداد المدلول عليها بحروف الكلمات من بعد لنظة تاريخ او ارّخت او ارّخ وهلم جرًّا والغريب في اللغة العربيّة ان بعض شعرائها يضمن قصيدتهُ تواريخ عديدة تؤخذ من مجموع اوائل الابيات او من اعجازها او صدورها او من الحروف المهملة او الحروف المعجمة الى غير ذلك حتّى ان بعض القصائد يتضمن الالف والالفين من التواريخ

ودخلت اللغة العربيّة مصر سنة ٦٣٨ للمسيح في زمن الخليفة عمر بن الخطاب (رضه) وكانت اللغة القبطيّة هي اللغة الشائعة بين العامة حسبما ذهب اليهِ بعض علماء اللغات فانتشرت اللغة العربيّة حالاً واخذت اللغة القبطيّة في التقهقر ولم تزل في تأخر حتّى القرن السابع عشر عند ما بطل استعمالها بين العامة واصبحت من اللغات القديمة المستعملة في الطقوس الدينيّة فقط

ولما اضحت اللغة العربيّة لغة القطر المصري عني علماؤها بضبط اصولها وابلاغها اعظم درجة من الاتقان واصبحت مصر معهد العلوم العربيّة فتقاطر اليها العلماء من كل فج ونادٍ من الكوفة والبصرة وبلاد العرب فصارت بلادًا عربيّة محضة وتكاثر عدد العلماء وزادت رغبة الاهالي في درس هذه اللغة وبذلك سارت في التقدم شوطًا يذكر . وقد زادت

العربيّة تقدمًا بانشاء مدرسة الجامع الازهر في القرن العاشر للمسيح فتقاطر اليها الطلبة من اطراف البلاد الاسلاميّة حيث اصابوا من العلم نصيبًا وافرًا ولهذا الصرح العلمي المشيد فضل عظيمٌ في انتشار اللغة العربيّة وخروج فطاحل من العلماء استضاء العالم بعلومهم وكان ولا يزال القطب الذي تتجه اليهِ انظار الناطقين بالضاد . ولم تزل هذه اللغة راقية مراقي الفلاح الى القرن الثالث عشر حينما اخذت في الضعف والانحطاط فدرست معالم العلم من جميع البلاد العربيّة وعلا جوَّها الصافي ضبابٌ كثيف طمس على الافكار وحجب انوار العلم والعرفان عنها ولم تزل في تأخر وتقهقر الى عهد غير بعيد ولكن لم يخلُ الامر في هذه الفترة من ظهور علماء مدققين الاّ انهم ليسوا بالعدد الكثير

وقد قام في القرن التاسع عشر جهابذة من علماء اللغة وحصلت في الشرق نهضة علميّة تذكر فوجب على كل من يسري الدم العربي في عروقهِ ان يساعد على نموّ هذه النهضة ولكن ما اقل الذين ينظرون الى هذه المسالة بما تستحقهُ من الاهتمام

ولا ينكر ان البلاد المصريّة تقدمت في هذا القرن تقدمًا بيّنًا وانتشرت العلوم بين ابنائها وان اللغة العربيّة تدرس الآن بكل اهتمام ولكنني لا ازال اكرر ما قلتهُ وهو ان الراغبين في هذه اللغة هم فئة قليلة جدًّا

ولا ريب ان في القطر المصري الآن جمهورًا من الكتّاب الذين ألفوا كتبًا تشهد لهم بالذكاء والاجتهاد ولو رأينا من الاهالي اقبالاً على مطالعة تصانيفهم تشجيعًا لهم لظلوا سائرين في مضمار التقدم ولمادت لغتنا العربيّة الى زهوها السابق وسرت المنافسة بين الشبان واتسع نطاق العلم

ومما اذكرهُ بالاسف الشديد عدم اهتمام الجمهور بمطالعة الكتب التي تؤلف حديثًا ولو تحفظوا ننعها بل مقابلتهم اياها بالتنديد والتحقير اضعافًا لعزيمة مؤلفيها ولذلك لا يجد المؤلفون اقبالاً الاّ من فئة قليلة من الذين يقدرون اتعابهم قدرها فالى هؤلاء المؤلفين الافاضل نوجه كلامنا راجين ان يثابروا على خطتهم الحميدة فان طريق نجاحهم ستبلغ بهم يومًا ما اوج التقدم والفلاح

سادتي كم من الجرائد العلميّة والصناعيّة ظهرت ثم عاجلها مرض الجرائد المعروف فتوفاها الله . وما تغلب على الصعوبات وزلل العقبات وخرج ظافرًا من ميدان الجهاد الاّ تلك الجريدة العربيّة الطائرة الصيت اعني بها جريدة المقتطف فهذه المجلة علميّة صناعيّة فلسفيّة زراعيّة تبحث في كل فرع من العلوم المذكورة بحثًا دقيقًا ولها من الفضل على اهل

المشرق عمومًا لا سيما اولئك الذين لا يعرفون لغة اجنبيّة ما يذكر مقرونًا بالثناء والشكر على منشئيها ومع ذلك نرى ان الاقبال عليها لا يكاد يذكر بالنسبة الى الاهالي ولولا ما لمنشئيها من الباع الطولى في التحرير والانشاء وما رزقاهُ من الجد والثبات وعلوّ الهمة لما ثبتت جريدتهما حتّى الآن ولكان اصابها ما اصاب غيرها من الجرائد

ولو كان الذين يتددون بالتآليف العلميّة واصحابها بلغوا شأوًا يذكر من العلم والادب لالتمسنا لهم عذرًا ولكنا نرى اكثرهم لو سئلوا ان يخطوا اسماءهم بلغتهم التي ولدوا فيها لوقعوا في حيرة لانهم يجهلون لغتهم جهلاً تامًّا والحقيقة ان دارسي اللغة العربية قليلون جدًّا والذين لهم المامٌ بأصولها وضوابطها ويقدرون ان يميزوا بين صحيح الانشاء وفاسده يعدون على الاصابع . ولا ينكر ان اللغة العربيّة من اصعب اللغات درسًا ولكن كلما زاد المرء علمًا بأصولها قلّت صعابها حتّى تنتهي به الحال ان يجد في درسها من اللذة ما لا يوصف

ونقسم اللغة الآن الى قسمين اللغة العاميّة اي اللغة المستعملة عند العامّة واللغة الكتابيّة . اما اللغة العاميّة فيتعبها كل مولود في البلاد او ساكن فيها بسهولة وهي بعيدة جدًّا عن اللغة الكتابيّة ولذلك لا تحصل ملكة اللغة الكتابيّة الّا بالدرس والتعليم سنين عديدة ولهذا نرى ان الذين لهم الباع الطولى في فن الانشاء العربي نفر قليل قد قضوا العمر بين الكتب والمحابر وهؤلاء شديدو المحافظة على اصول اللغة حتّى لقد تأخذهم الحدة اذا رأوا الكتابات الركيكة او سمعوا من يقرأ كتابًا فصيحًا متعثرًا في قراءته

وفي اللغة قسم ثالث وهو كلمات مصطلح عليها يختلف معناها باختلاف البلدان ففي مصر مثلاً كلمات لا وجود لها في سوريّة وفي سوريّة كلمات لا وجود لها في بغداد وهلمّ جرًّا

ومما اذكرهُ بالاسف ايضًا ان بعض شبابنا قد اعتادوا ان يستعملوا بعض العبارات الافرنجيّة في كلامهم العربي واذا اعترض عليهم معترض او انتقد مقالهم منتقد اجابوهُ باستخفاف ان هذه عادةٌ ألفناها وهذا ذوقنا العصري ولا جدال في الذوق فجوابًا على هذه الاعذار الظاهرة تخافتها نكتفي بايراد ما كتبهُ فولطير في هذا الصدد قال

يقال ان لا جدال في الذوق وهذا المثل يصدق اطلاقهُ على الذوق الحسي وهو ما يشعر بهِ الانسان من اللذة في بعض اصناف الاطعمة والتنه في غيرها وهذا مما لا يقبل الاصلاح ولكن الامر بعكس ذلك في الصنائع والفنون الجميلة التي لها كان لها جمال حقيقي فلذلك قد يميزها صاحب الذوق السليم كما ان من فسد ذوقهُ لا يدرك كنهها وهذا الذوق ممكن اصلاحهُ ولكن كثيرين دأبهم الخمول ومنهم من فسدت سيرتهم واخلاقهم ومثل هؤلاء

يتعذر تقويم اعوجاجهم فالاولى عدم الجدال معهم في الذوق لانهم لا ذوق لهم

ولندع مثل هؤلاء وشأنهم اذ لا سبيل لاصلاحهم ولنلتفت الى غيرهم من شبابنا الادباء الذين يحترون لغتهم التي نشأوا فيها ويتصبون بكليتهم على درس اللغات الاجنبية حتى اصبحوا لا يحسنون التحدث في لغتهم أفليس ذلك ذنبٌ لا يغتفر او ألا نعلوم جمرة الخجل اذا رأوا الاوربيين يعكفون على درس اللغة العربية ويبرعونهم فيها . ولنا الامل الوطيد ان اللغة العربية ستعود الى عزها السابق وتغدو بلادنا المصرية محط رجال العلماء فقد اقبل شبابنا المصريين على درس اللغة العربية بهمة اسلافهم وثباتهم فانهم مع تقلب دول كثيرة عليهم كالفرس واليونان والرومان لم يتخلوا باخلاق تلك الشعوب ولم يتنبسوا لغاتهم بل ظلوا محافظين على لغتهم المصرية الاصلية الى ان دخلت بينهم اللغة العربية فاقبلوا على درسها وشاعت بينهم في زمن وجيز ولنا الأمل ان ابناءهم يحذون حذوهم وينشطون من عقال الاهمال ويعيدون الى اللغة العربية الشريفة مقامها الرفيع بين لغات الارض متسابقين الى درسها كبيرهم وصغيرهم غنيهم وفقيرهم متمسكين بعروة الوفاق الوثقى لا سيما وان لهم باميرهم الفخيم عضداً ساميًا في سبيل تعميم المعارف ونشر العلوم وقد استهل ملكه بأن امر بتأليف مجمع علمي لاجل ضبط اللغة العربية وايجاد الوسائط الناجعة لتسهيل تعليمها ونشرها وقد انتظم في هذا المجمع جمهور من جهابذة العلماء فعسى ان يكون نتائج اعمالهم تخليد ذكر هذا المجمع ومسرة الجناب العالي

حلوان وحماماتها

للدكتور دنجر طبيب حمامات حلوان

حلوان مدينة حماماتها معدنية جنوبي القاهرة يقصدها الوطنيون والاجانب من جهات شتى ولا سيما في فصل الشتاء . وحتى الآن لم نرَ احداً يقدّر حماماتها قدرها في فصل الصيف . فمن اواخر شهر يونيو الى اواخر يوليو يشتد الحرّ فيها اكثر من اشتداده في القاهرة ولكن تخفّ وطأته في الليل وتهبّ فيها الرياح المنعشة للارواح والابدان ويزيد النسيم في الصباح لطفاً لان الحرارة تنخفض بعد الزوال في الصحراء اكثر من انخفاضها في الاماكن الرطبة المكسوّة بالخضرة ويظهر ذلك من الجدول الآتي الذي ذكرت فيه درجات الحرارة في القاهرة وحلوان من ٢٦ يوليو هذه السنة الى ١٠ اغسطس بميزان سنتجراد